اليتيم في العيد(*)

أطلّ صباحُ العيدِ في الشرقِ يسمعُ ... ضجيجاً به الأفراحُ تَمضي وتَرجعُ
صباح به تبدي المَسرةُ شمسَها ... وليس لها إلّا التوهمَ مطلعُ
صباح به يختال بالوَشْي ذو الغنى ... ويعوز ذا الإعدامِ طِمرٌ مرقّعُ
صباح به يكسو الغنيّ وليده ... ثياباً لها يبكي اليتيم المضيَّعُ
صباح به تغدو الحلائلُ بالحلى ... وتَرفَضُّ من عينِ الأراملِ أدمعُ
ألا ليت يومَ العيد لا كان إنّه ... يجدّد للمحزون حزناً فيَجزَعُ
يرينا سروراً بينَ حزنٍ وإنّما ... به الحزن جدٌّ والسرور تَصَنُّعُ
فمن بؤساءِ الناس في يوم عيدهم ... نحوسٌ بها وجهُ المسرّةِ أسفعُ
قدِ ابيضّ وجهُ العيد لكنّ بؤسهم ... رمى نُكَتاً سوداً به فهو أبقعُ(1)

* * *

خرجتُ بعيدِ النحر صبحاً فلاح لي ... مسارحُ للأضداد فيهنّ مرتعُ
خرجت وقرصُ الشمس قد ذَرّ شارقاً ... ترى النورَ سيّالاً به يتدفّعُ
هي الشمس خَوْدٌ قد أطلّت مُصيخةً ... على الأرض مِن أفْقِ العُلا تتطلّعُ
كأنّ تفاريقَ الأشعّةِ حولها، ... على الأفقِ مُرخاةً، ذوائبُ أربعُ
ولمّا بدت حمراءَ أيقنتُ أنّها ... بها خجل ممّا تراه وتسمعُ
فرُحت وراحت ترسل النورَ ساطعاً ... وسرتُ وسارت في العُلا تترفّعُ
بحيث تسير الناسُ كلٌّ لوجهةٍ ... فهذا على رسلٍ، وذلك مُسرعُ
وبعض له أنفٌ أشمُّ مِن الغنى ... وبعض له أنفٌ من الفقر أجدعُ
وفي الحيّ مزمارٌ لمُشجي نَعِيره ... غدا الطبلُ في دردابه يتقعقعُ

(*) من الشعر الاجتماعي يصوّر فيه الشاعر مأساة اليتيم في العيد، وهي واحدة من مآسٍ كثيرة يعانيها المجتمع العربي في عصره. والشعر من الطويل.

(1) في هذا المقطع، يتحدث الشاعر عن إطلالة عيد الأضحى. فأسعد أناساً، وأشقى أناساً، أفرح بعضهم، وأحزن آخرين. **المسرّة**: السرور والفرح والغبطة. **والوشي**: الحلية. **والإعدام**: الفقر. **والطمر**: الثوب البالي. **والوليد**: الولد. **والحلائل**: الزوجات. **وترفض**: تتناثر. **ويجزع**: يخاف. **وأسفع**: أسود. **وأبقع**: فيه بقع بيض وسود. **والنكت**: الهنات.

فجئت وجوفُ الطبل يرغو وحوله شبابٌ وولدانٌ عليه تجمعوا
لقد وقفوا والطبلُ يهتزُّ صوتُه فتهتزّ بالأبدان سوقٌ وأكرُعُ
ترى مَيْعةَ الإطراب والطبل هادر تفيض وفي أعصابهم تتميَّعُ
فقد كانتِ الأفراح تفتح بابها لمن كان حول الطبل والطبل يقرعُ(١)

* * *

وقفت أجيلُ الطرفَ فيهم فراعني هناك صبيٌّ بينهم مترعرعُ
صبيّ صبيح الوجه أسمرُ شاحبٌ نحيفُ المباني أدعجُ العين أنزعُ
يَزين حجاجَيْه اتساعُ جبينهِ وفي عينه برقُ الفَطانة يلمعُ
عليه دَريسٌ يَعصِر اليُتم رُدْنه فيقطرُ فقرٌ مِن حواشيه مُدقعُ
يُليح بوجهٍ للكآبة فوقه غُبارٌ به هبّت مِنَ اليتم زَعزَعُ
على كثر قرع الطبل تلقاه واجماً كأنْ لم يكن للطبلِ ثَمّةَ مَقرعُ
كأنَّ هديرَ الطبل يقرعُ سمعه فلم يُلْفِ رجعاً للجواب فيرجعُ
يردّ ابتسامَ الواقفين بحسرةٍ تكاد لها أحشاؤه تتقطعُ
ويرسل مِن عينيه نظرةَ مُجهِشٍ وما هو بالباكي ولا العين تدمعُ
له رجفةٌ تنتابه وهو واقفٌ على جانبٍ والجوّ بالبرد يلسعُ
يرى حوله الكاسين مِن حيث لم يجدْ على البَرد مِن بُردٍ به يتلفّعُ
فكان ابتسام القومِ كالثلج قارساً لدى حسرات منه كالجمر تَلذَعُ(٢)

* * *

(١) وفي هذا المقطع يحدثنا الشاعر عن خروجه صبيحة العيد ليتفقد حال المعيّدين، فإذا هم في هرج ومرج، هذا تبدو آثار النعمة والفرحة عليه، وهذا آثار البؤس والنقمة والفقر، وكان لنقر الطبل، وعزف المزمار، وقعٌ في ذلك اليوم مميّز.

عيد النحر: عيد الأضحى، حيث تُنحر الأضاحي. **وذرّ شارقاً**: تلألأ. **والخود**: الحسناء. **ومصيخة**: منصتة. **والذوائب**: الخُصل من الشعر، وغيره، جمع ذؤابة. **وعلى رسل**: على مهل وتُؤدة. **وأجدع**: مقطوع، بخلاف الأشمّ. **والنعير**: الصياح. **والدرداب**: صوت الطبل. **ويتقعقع**: يتردّد ويتجاوب. **والسوق**: السيقان، الأرجل ما بين الركبة والقدم. **والأكرع**، جمع كراع، وهو مستدقّ الساق. **وميعة الشيء**: أوّله. **وتتميّع**: تسيل.

(٢) يصوّر الشاعر في هذا المقطع منظر الصبيّ اليتيم الذي كان يشارك الطبّالين، في قرع الطبل طمعاً في دراهم معدودات. يصوّر ذهوله، حيرته، فقره، لباسه الرثّ، سهوم عينيه، اضطرابه.. =

فلمّا شجاني حاله وأفزّني ... وقفت وكلّي مَجْزَعٌ وتَوَجُّعُ
ورحت أعاطيه الحنَانَ بنظرةٍ ... كما راح يرنو العابدُ المتخشِّعُ
وأفتح طرفي مُشبعاً بتعطُّف ... فيرتدّ طرفي وهو بالحزن مشبعُ
هناك على مهل تقدّمتُ نحوه ... وقلت بلطفٍ قولَ مَن يتضرّعُ
أيا ٱبنَ أخي مَن أنت ما اسمُكَ ما الذي ... عراك فلم تفرحْ فهل أنت مُوجعُ؟
فهبّ أمامي مِن رُقادٍ وُجومِهِ ... كما هبّ، مرعوبَ الجنَان، المهجَّعُ
وأعرض عنّي بعدَ نظرةِ يائسٍ ... وراح ولم ينبِسْ إلى حيث يهْرَعُ
فعقّبته مستطلعاً طلْعَ أمره ... على البُعد أقفو الإثْرَ منه وأتبعُ
وبيناه ماشٍ حيث قد رُحت خلفه ... أدِبُّ دبيبَ الشيخِ طوراً وأسرعُ
لمحت على بُعد إشارةَ صاحبٍ ... ينادي أنِ ارْجعْ وهو بالثوب مُلمِعُ
فأومأت أن ذكرته موعداً لنا ... وقلت له اذهبْ وانتظرْ فسأرجعُ
وعُدت فأبصرت الصبيَّ مُعرِّجاً ... ليدخل داراً بابُها مُتَضعضعُ
فلمّا أتيتُ الدارَ بعدَ دخوله ... وقمت حِيالَ البابِ والباب مُرجَعُ
دنَوت إلى باب الدُوَيرة مطرقاً ... وأصغيت، لا عن ريبةٍ، أتسمّعُ
سمعت بكاءً ذا نشيجٍ مُردَّد ... تكاد له صُمّ الصفا تتصدّعُ
فحرتُ، وعيني ترمق البابَ خلسةً ... وللنفس في كشف الحقيقةِ مَطمَعُ
أأرجِع أدراجي ولم أك عارفاً ... جَليّة هذا الأمر، أم كيف أصنعُ؟![1]

* * *

= راعني: أخافني وأعجبني. ومترعرع: ناشئ. وصبيح: حسن. وأدعج العين: واسعها. وأنزع: خفيف شعر مقدّم الرأس. والحجاجان، مثنّى حجاج، وهو العظم الذي ينبت عليه الحاجب. والفطانة: الذكاء. والدريس من الثياب: البالي الرثّ. والردن: الكمّ. ومدقع: شديد. وزعزع: صفة للريح القويّة. ويُلف: يجد. ومجهش: متهيّئ للبكاء، أو باك. ويلسع: يقرص. والبُرد: الثوب. ويتلفّع: يتدثّر، ويتّخذه لفاعاً وغطاءً.

(١) وفي هذا المقطع مساءلة الشاعر هذا الصبيّ اليتيم القارع للطبل، عن السرّ الكامن فيه، وعدم جواب الصبيّ. الشاعر يلحق به لمّا أعرض عنه، إلى منزله. شجاني: أحزنني. وأفزّني: أثار سخطي. والمجزع، المصدر الميمي من جزع، أي خاف وحزن. والجنان: القلب. والمهجّع: النائم. ويهرع: يسرع. وطلع أمره: سرّه. وبيناه، أصلها: بينا هو. وأدبّ: أمشي بعجز. ومتضعضع: مختلّع. والدويرة: الدار الصغيرة. والنشيج: العويل. والصفا: الحجارة. وتتصدّع: تتكسّر. وترمق: تنظر. وينبس: يتكلّم. وخلسة: خفية. وجليّة الأمر: حقيقته.

فمرّت عجوز في الطريق وخلفَها ... فـتـاةٌ يُـغـشـيّـهـا إزارٌ وبُـرقُـعُ
تـعـرّضتـهـا مـسـتـوقـفـاً وسـألـتـهـا ... عن الاسمِ قالت إنني أنا «بَوْزَعُ»
فأدنيتها مني وقلت لـهـا اسمعي ... حنانَيْك ما هذا الحنينُ المُرجَّعُ
فـقـالـت وأنّـتْ أنّـةً عـن تَـنَـهُّـدٍ ... وفي الوجه منها للتعجُّب مَوْضعُ
أيا ابْنيَ ما يَغْنيكَ مِن نَوحِ أيِّمٍ ... لها مَنْ رزايا الدهر قلبٌ مُفجَّعُ
فقلت لها إني امرؤ لا يَـهُـمّـنـي ... سوى من له قلب كقلبي مُروَّعُ
وإنّـي وإن جـارت عـلـيّ مـواطـنـي ... فـؤادي عـلـى قُـطّـانـهـنّ مُـوزّعُ
أبوزع مُـنّـي عَـمْـرَكِ الـلّـه بـالـذي ... سألتُ فقد كادت حشاي تَمَزَّعُ
فقالت أعن هذي التي طال نحبُها ... سـألـتَ فـعـنـدي شرحُ مـا تـتـوقـعُ
ألا إنـهـا «سلمى» تعيسةُ معشرٍ ... مِنَ الصّيدِ أقوت دارُهُم فهي بَلقَعُ
وصـارعـهـم بـالموت حـتـى أبـادهـم ... من الدهر عَـجّـارٌ شـديـدٌ مُصرِّعُ
فـلـم يـبـق إلّا زوجـهـا وشـقـيـقـهـا ... «خـلـيـلٌ» وأمـا الآخـرون فـودّعـوا
ولم يَلبَثِ المقدور أن غال زوجها ... «سعيداً» فأودى وهي إذ ذاك مُرضعُ
فـربّـى ابـنَـهـا «سـعـداً» وقـام بـأمـره ... أخوها إلى أن كاد يَقوىَ ويَضْلعُ
فأذهب عنه الخالَ دهرٌ غَشَمْشَمٌ ... بمـا يُـوجـع الأيـتـام مُـغـرىً ومُـولَـعُ
جَرَت هَنَةٌ منها على خاله انطوى ... بقلب رئيس الشرطة الحقدُ أجمعُ
فزجّ به في السجن بعدَ تَجَرُّمٍ ... عـلـيـه بـجُـرم مـا لـه فـيـه مَـصـنَـعُ
عـزاه إلـى إيـقـاعـه مُـوقـعـاً بـه ... وما هو يا ابنَ القومِ للجرمِ موقعُ
ولـكـنّ غـدرَ الـحـاقـديـن رمـى بـه ... إلى السجن فهو اليومَ في السجنِ مُودَعُ
فـحُـقّ «لـسـلـمـى» أن تـنـوحَ فـإنـهـا ... مـنَ الـعـيـش سـمّـاً نـاقـعـاً تـتـجـرَّعُ
فلا غرو من أمّ اليتيم إذا غدت ... ضحى العيد يُبْكيها اليتيمُ المُضيَّعُ[1]

* * *

(١) يتحدث الشاعر في هذا المقطع المطوّل عمّا دار بينه وبين المرأة، وتقصّ المرأة على الشاعر قصّتها وقصّة سلمى التي فقدت الزوج والأخ فلم يبق لها إلّا وليدها سعد، اليتيم الذي عضّته الحاجة، فاضطرّ إلى قرع الطبل في العيد ليجمع دريهمات يعول بها أود أمّه الأيّم، مأساة من مآسٍ كثيرة يعانيها المجتمع. **الإزار**: الثوب. **والبرقع**: غطاء الوجه. **وبوزع**: اسم المرأة. **والمرجّع**: المردّد. **والأيّم**: الزوجة التي فقدت الزوج. **ورزايا الدهر**: مصائبه. **والقُطّان**: السكان. **وتمزّع**: تقطّع. **والصيد**: الأشراف. **وبلقع**: خراب قفر. **والعجّار**: الشديد. **وغال**: أهلك. **وأودى**: هلك. **ويضلع**: يشتدّ. **وغشمشم**: شديد الوطأة، ظالم.

فـعُـدتُ وقـلـبـي جـازعٌ مـتـوجّـعٌ وقـلـت وعـيـني ثَـرّةُ الـدمـع تَـهـمَـعُ
ألا لـيـت يـومَ الـعـيـد لا كـان إنّـه يـجـدّد لـلـمـحـزون حـزنـاً فـيَـجـزَعُ
وجئت إلى ميعادنا عندَ صاحبي وقد ضمّه والصحبَ نادٍ ومَجمَعُ
فـأطـلـعـتـهـم طـلـعَ الـيـتـيـم فـأُفّـفـوا وخـبّـرتـهـم حـالَ الـسـجـين فـرَجَّـعـوا
فقلت دعوا التأفيفَ فالعارُ لاصقٌ بكم واتركوا الترجيعَ فالأمر أفظعُ
ألـسـنـا الأُلـى كـانـت قـديماً بلادُنـا بـأرجـائـهـا نـور الـعـدالـة يـسـطـعُ
فما بالنا نستقبل الضيمَ بالرضا ونعنو لحكم الجائرين ونَخْضَعُ
شربنا حميمَ الذُلِّ ملء بُطوننا ولا نحن نشكوه ولا نحن نَيْجَعُ
فلو أنَّ عَيْر الحيّ يشربُ مثلنا هـوانـاً لأمـسـى قـالـسـاً يـتـهـوَّعُ
نـهـوضـاً إلى الـعـزّ الـصُراح بـعـزمـةٍ تـخِـرّ لمـرمـاهـا الـطُـغـاةُ وتـركـعُ
ألا فاكتُبوا صكَّ النهوضِ إلى العُلا فـإنّـي عـلـى مـوتـي بـه لَـمُـوقِّـعُ(١)

* * *

ياسين باشا(*)

«يـاسـيـنُ» إنّـكَ بـالـقـلـوبِ مـشـيَّـعُ أفـأنـتَ لـلـوطـنِ الـعـزيـزِ مـودّعُ(٢)
أخـذوك يـا بـطـلَ الـمـعـامـعِ غِـيـلـةً بيدِ الخِداعِ ومثلهم مَن يخدعُ(٣)
وَلَـوَ انَّـهـم تـركـوا الـخـداعَ وحـاولوا لُـقـيـاكَ أعـجـزهـم إلـيـك الـمـطـلـعُ

(١) تقريع الشاعر لأصحابه، وتنديد بسياسة الذين بأيديهم الأمر، والإصلاح. ودعوة إلى استنهاض الهمم وإصلاح المجتمع.
تهمع: تسيل. **والتأفيف**: قول أفّ، للتوجّع والتذمّر. **ورجّعوا**: قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون. **والضيم**: الظلم. **والأُلى**: الذين. **ونعنو**: نخضع، **والحميم**: الشراب الساخن. **ونيجع**: نتوجّع، المضارع مِن وجع. **والعيْر**: الحمار. **والهوان**: الذلّ. **وقالساً**: متقيئاً مستفرغاً ما في بطنه. **ويتهوّع**: يتقيّأ. **والصراح**: الواضح الحرّ لم تشبه شائبة. **والصك**: العهد والكتاب.

(*) من الشعر الوطني السياسي، قاله مندّداً بسياسة الحكومة السورية الهاشمية المتواطئة مع الإنكليز على ضرب الوطنيين الأحرار، ومنهم المدعوّ «ياسين» الذي اعتقل بالرملة في فلسطين. والقصيدة من الكامل.

(٢) **مشيّع**: مودّع إلى مثواك الأخير.

(٣) **المعامع**، جمع معمعة، وهي المعركة. **وغيلةً**: بالمكر والخداع، لا بالمواجهة.